ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

أحمد توفيق المدني الوسيط **النضالي بين تونس والجزائر من خلال مؤلّفه " حياة كفاح" *

Ahmed Tawfiq al-Madani: The Mediator of Colonial Struggle between Tunisia and Algeria through his Book " Hayat Kifah" "Life Struggle"

الباحثة هادية صيود ~~~~~~~~~~~~

Sioud Hadia

دكتورة في التاريخ الثقافي

باحثة بمختبر النخب والمعارف والمؤسسات الثقافية بالمتوسط

جامعة منوبة – تونس.

sioudhadia@yahoo.fr

صص142-154

Abstract : Ahmed Tawfiq Al-Madani, was pertaining to two distinct origins: Algerian and Tunisian. He grew up under **Abd Aziz Thaalbi**'s directives, and was considered as one of the most prominent religious man of his period (1920's). Historically speaking, the French tyrannical colonies forced him to leave Tunisia, so the only shelter he found was Algeria. He came to Algeria with a scientific knowledge and a great political training that enabled him to carry on struggling for independence and freedom from colonial oppression. The various events of prisons and struggles were a union mediator between Tunisia and Algeria. So, all the experiences he faced, he wrote them down on his book named: "Life struggle" which talked about his personal career. His masterpiece was divided into four stages:

- The first phase was in Tunisia which expended from birth to the period of exile 1925.
- The second phase was in Algeria from 1925 to 1954.
- The third stage was around the revolution from 1954 to 1962.
- The fourth and final stage, discussed the period after the armed revolution from 1962 to 1973.

In this article, the focus will be on the quality of the struggling activities led by Ahmed Tawfiq al-Madani as the mediator between Tunisia and Algeria**.** Now, who was Ahmed Tawfiq al-Madani? Moreover, how was his mediation between Tunisia and Algeria? And, what were his most important positions and his reformist ideas?

Key words: Ahmed Tawfiq Al-Madani**;** Algerian**;** abd Aziz Thaalbi**;** Tunisia**;** Algeria**.**

* تاريخ استقبال المقال:2018/01/28 تاريخ المراجعة:2018/04/22 تاريخ القبول:2018/04/29

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مقدمة: إن دراسة تاريخ الأفكار ومواقف أعلام المشرق والمغرب، وما رافقها من قضايا على امتداد أكثر من قرنين من النضال العربي والإسلامي، لهو إثراء علمي ومعرفي هام، تجسّد من خلال الوقوف عند مواطن الإضافة والطرافة فيه، وما تكتنفها من رهانات لمواجهة تحديات العصر المطروحة من تصحّر فكري وغياب الرياديّة الفاعلة في الوطني العربي اليوم. الأمر الذي استوجب الاطلاع على تجارب مصلحي الوطن العربي في العصر الحديث، حيث خدموا وناضلوا من أجل قضايا العرب والمسلمين بالمشرق والمغرب، متحدين في ذلك النظام الاستعماري الذي كان جاثما على أوطانهم، فاخترقوا الحصار ونشروا آراءهم عبر الجرائد والمجلات وألّفوا الكتب والتجئوا إلى المنابر الدولية، وليتركوا لنا إرثا نضاليا وبطولات توجب الاقتداء به، لا لغاية الذوبان في الآخر أو استنساخ تجاربهم والسير الرتيب على خطاهم، بقدر ما يمثلون منارة نضالية ثورية تنير درب مفكري الوطن العربي، فيضطلعون بدورهم الريادي في كشف الأسرار وإماطة اللثام عن كل ما هو تزييف ومغالطة.

تلك هي رسالة العالم المصلح والمناضل التي يجب أن يكون عليها، وهو ما يتجلّى مع الوسيط النضالي التونسي الجزائري أحمد توفيق المدني الذي خدم القضية العربية الإسلامية، متحديّا آلة الاستعمار ومندّدا بقادتهم العسكريين الذين صادروا أملاكهم وأفكارهم، وحكموا عليهم قسرا وتعنّتا.

وقد تجلت هذه الأحداث والمواقف التي عاشتها هذه الشخصية النضالية ضمن مذاكرته التي سمّاها "حياة كفاح" يخصّ فيها مسيرة كفاحه ضمن أربعة أجزاء، وهي أربع محطات كبرى عاشها المؤلّف والتي تتمثل في:

- المرحلة الأولى بتونس منذ الولادة إلى غاية 1925 فترة نفيه.
- المرحلة الثانية بالجزائر من سنة 1925 إلى سنة 1954.
- المرحلة الثالثة خلال الثورة في سنة 1954 إلى سنة 1962.
- المرحلة الرابعة والأخيرة، وهي فترة ما بعد الثورة المسلحة إلى حدود تاريخ تأليف الكتاب من سنة 1962 إلى سنة 1973.

وسيقع التركيز في هذا المقال بالتحديد على نوعية الأنشطة النضالية التي قام بها أحمد توفيق المدني كوسيط نضالي بين تونس والجزائر، فكيف نشأ أحمد توفيق

المدني؟ وكيف كانت وساطته النضالية بين تونس والجزائر؟ وما هيّ أهم مواقفه وأفكاره الاصلاحية التي دعا إليها؟

I- نشأة أحمد توفيق المدني: ولد أحمد توفيق المدني يوم غرّة نوفمبر سنة 1899م/24 جمادى الثانية 1317هـ بتونس، وهو أصيل عائلتين جزائريتين هاجرتا إلى تونس عندما اشتدّ الاضطهاد الفرنسي بالجزائر قبل الثورة الكبرى للأخوين المقراني، وكان ذلك سنة 1871-1872، كان جدّه عمر بويراز قبل هجرته شيخ بلدية العاصمة الجزائرية، أما أبوه محمد فقد كان من كبار علماء الجزائر حيث تلقى علومه في الجامع الكبير، وبعد هجرته أقبل على العلم والمعرفة في جامع الزيتونة ليتولّى بعدها إمامة جامع زاوية الشيخ إبراهيم الرياحي.

كانت بدايات نشأة أحمد توفيق المدني في دار جدّه اذ يذكر في هذا السياق "كانت مدرسة حقيقية سامية الأهداف، رفيعة العماد تحتوي على خير ما في الدين وعلى خير ما في الدنيا، وكان جدّي بويراز يعتكف على قراءة القرآن، وكان له ختم مرتين في الشهر، وكان مولعا بقراءة البخاري ومسلم، وكنا قبل صلاة العشاء نحيط به رجالا ونساء وصبيانا فيلقي كل ليلة درسا في الدين والأخلاق...، ثم يعرج كل يوم على ذكر الاحتلال الفرنسي بالجزائر ومآسيه وفضائعه ومذابحه وقذارته إلى أن يستفزّ شعورنا، وإلى أن تسيل دموعنا"[(1)].

أحيط المدني بعائلة ثورية رافضة للوضع الاستعماري السائد آنذاك من استبداد وطغيان جائر حتى أنهم كانوا يجتمعون في غرفة خاله محمد بويراز واصفا له "فيأخذ في الحديث الثائر المهيج الهادف، ويحيد في حديثه وهو يكلمنا عن حالة الاسلام والمسلمين، وعن الجمود الذي غلّ أيدي المسلمين، وعن اعتداء أعداء الإسلام على بلاد الإسلام"[(2)].

مثّل مناخ العائلة المدرسة الأولى التي جعلت منه شخصيّة ثوريّة؛ فهو القائل: "خلقت ثائرا حيثما تكون الثورة أكون وتكون ثورة حيثما أكون"[(3)]، فقد كان يستمع إلى أطراف الحديث من أفراد عائلته لحكايات قاسية عن أهله وعشيرته اذ يقول: "فكنت أتلقى تلك الدروس القاسية العنيفة، وتعيها نفسي وتتكيف بها حياتي قبل أن أتلقى أول درس بأول كتّاب"[(4)].

أحاطته والدته بالعناية والاهتمام في بدايات تعلمه، فربّته على الأخلاق الحميدة والتربية الجيدة، إضافة إلى تعلم بعض السور القرآنية القصيرة والأحاديث النبوية، وكان ذلك قبل دخوله إلى الكتّاب في سنّ الخمس سنوات، وهو ما يتضّح من خلال مذكّراته: "فقد تميز بسرعة البديهة والحفظ الجيد وحسن السيرة بين أقرانه إلى درجة دفاعه عن أحد أترابه، والذي كان يكنّى بالعمري، حيث انهال عليه المؤدّب الذي يعلّمه القرآن بالضرب المبرح، وكان الولد يستغيث ويصيح؛ فما كان من أحمد إلى أن انقضّ على المؤدب وتصدّى له، وأثناء الخروج انهال الصبي العمري على يدي يقبلها، وأعجب الصبيان بعملي البطولي"[5].

هكذا كانت بدايات أحمد توفيق المدني؛ فقد ولد أكبر من سنه مع نضج مبكر ورفض للظلم والطغيان، وحس مرهف سيتضح أكثر وسيتعمق أكثر مع مرور الزمن، وخاصة مع المستعمر الفرنسي؛ فمنذ صغره وهو على وعي بضرورة التصدي للظلم والقهر بمختلف أشكاله مجسّدا ذلك بقوله: "فقد كنت أتصوّر منذ وأنا الصبي الضعيف أني تقمصت شخصية الزعيم...، أصول وأجول بين صفوف الأعداء، أمزق شملهم...، أخلص الناس من الظلم والطغيان، وأحرر الأرض من طاغوت الاستعمار"[6].

انتقل المدني من الكتّاب إلى المدرسة القرآنية، وكان ذلك سنة 1909 وهي مدرسة قام بتأسيسها جماعة من التونسيين الفضلاء الذين أسندوا إدارتها إلى أحد رجال الزيتونة فيردّد قائلا: "فلا أزال ولن أزال أدين له بالفضل، وأذكر له الجميل، وأحفظ له أقدس صورة بين خلايا الضمير هو الأستاذ محمد صفر"[7].

كان أحمد توفيق المدني يجمع أترابه من الدراسة حوله؛ فيروي لهم ما اختزنته ذاكرته من حكايات جده وخاله، إذ يقول: "فيستفز همهم للعمل والثورة في كل الميادين، وتقويم الأخلاق والسعي لجمع كلمة المسلمين ومقاومة المطامع النصرانية"[8]، إلى جانب دراسته كان يطلع على الصحف والمجلات التي كانت تهتم بالشأن السياسي؛ فكانت بدايته مع مجلة العروة الوثقى[9] التي كان يصدرها بباريس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده حيث كان يغتنم غياب خاله الذي كان من قراء

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

هذه المجلة فيتناوب هو وأقاربه ليأخذوا أعداد العروة الوثقى والمؤيد واللواء؛ فيتناوبون على قراءتها بشغف كبير.

انتهت دراسته بالمدرسة القرآنية الأهلية مثقلا بالعلوم التي استقاها من أساتذته،كالنحو والصرف وعلوم الدين والرياضيات ومبادئ اللغة الفرنسية وغيرها من العلوم التي تؤكد تكوينه المعرفي الشامل لعدة مواد، إضافة إلى ذلك تحول أحمد توفيق المدني في السنتين الأخيرتين بالمدرسة إلى خطيب المدرسة وكاتبها المبرز.[10]

انتقل المدني إلى الدراسة بجامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية، وقد اتخذ لنفسه منهجا علميا خاصا به، إذ تلقى علومه ومعارفه على يد الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إمام بجامع الزيتونة، فقد اختار أسلوب دراسة خاص به قائلا: "فلا أتقيّد بصف ولا أشارك في امتحان، كنت أطلب العلم لأجل العلم لا لأجل منصب"[11]، وهو ما يؤكد قوة شخصيته الثورية الفريدة من نوعها ونزعته للطوق نحو التحرر.

II- الوساطة النضالية بين تونس والجزائر:

1- في تونس: ثار أحمد توفيق المدني على كل ما اعتبره سببا للجمود الفكري، وكانت ثورته منذ أن كان طالب علم لم يتجاوز 12 سنة، فقد كان يجاهر بصوته أمام أترابه وأساتذته، وذلك طمعا في تغيير ما في أنفسهم إلى درجة سخرية بعض الأساتذة منه ظنا أنه يفعل المستحيل؛ فكان يدافع عن رأيه بقوله لهم: "كلا إن يد الله لم تبرم إلا لخير الصلاح، وإنما الوسط المنحل والجامعة المهلهلة وتفرق الكلمة والخضوع للمستعمرين وعدم الاستعداد لردّ العدوان خلافا لما أمر الله بذلك"[12].

كان شديد التأثر بالمصلح والزعيم النضالي عبد العزيز الثعالبي [13]؛ فقد كان يقتدي به كمثال له فيقول: "فمن سمعني وأنا أخطب وطالما خطبت فكأنه يسمع الثعالبي في لهجته ونبراته"[14]. ومن خلال مذكراته روى أحمد توفيق المدني رواية كان فيها وسيطا بين نخبة من رفاقه المناضلين وبين عبد العزيز الثعالبي عند ما أودع هذا الأخير في السجن، وطلب منه التنكر بزي معاون حلاّق والدخول يوم الأحد إلى ثكنة القصبة الذي يتواجد فيه السجن العسكري، ومحاولة إيصال رسالة إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي، إذ يقول: "أعجبتني المهمة وعاد من جديد حب اقتحام الأخطار، سأفعل اللازم على الوجه الأكمل بحول الله"[15].

كما انضمّ المدني إلى "جامعة عموم العملة التونسية" وإلى "الحزب الدستوري التونسي"[16] في منتصف شهر ماي سنة 1920 مع ثلة من المثقفين المناضلين التونسيين، مردّدا: "وهكذا أصبحت من الغد مستقرا في غرفة صغيرة بنهج سيدي الرصاص...، وأخذت أنظم حسابات مالية وقائمة بالأعضاء وأرتب الدفاتر"[17]، وقد أنشأت في الأثناء "جريدة الفجر" التي كانت في ظاهرها مجلة علمية أدبية فكرية، أما الغاية من ورائها كانت الطريقة الشرعية الوحيدة لجمع أموال الحزب، وتغطية مصاريفه الكثيرة، وقد أسندت إدارة وتحرير مجلة الفجر إلى أحمد توفيق المدني.

واصل المدني مشواره النضالي، وتعمّق أكثر في المجال الصحفي الذي برع فيه، فقد كان يترك الأثر العميق في نفوس التونسيين وأيضا لدى المستعمر، يقول: "كانت حياتي الصحفية بتونس طيلة المدة التي كنت فيها على رأس الكفاح حياة شرف وفخار، ولا أشهد أنا وحدي بهذا بل يشهد به التونسيون جميعا، ويشهد به المطلعون من رجال الشرق والغرب"[18].

وانطلقت رحلته الصحفية مع أول مقال له منذ أن كان عمره لا يتجاوز الخامسة عشر، والذي يحمل عنوان "الادمان أول وزراء الموت" بجريدة "الفاروق الجزائرية" في نوفمبر 1914، وقد وصف إحساسه عند نشرها بقوله: "ولا أنسى ما اعتراني من نشوة، وما وجدته في نفسي من اعتزاز عندما جاءنا الفاروق بعد مدّة طويلة يحمل بين طياته ذلك المقال، وكنت أنظر إلى اسمي مطبوعا تحت مقالي بشيء من الخيلاء والعجب كأنني ملكت الدنيا وما فيها"[19]، إلا أن المقال الذي أحدث الأثر المطلوب في نفوس التونسيين هو مقال "لجج الهواجس" في ديسمبر 1914، حيث أوقد في الأوساط التونسية شعلة رجاء وأمل في أن يعيد في تونس ما فقدته من ثقة[20].

ولم يبق المدني عند هذا الحدّ بل امتدّ مشواره النضالي إلى القيام باجتماعات سرية متتالية من أجل التخطيط لعمل ثوري مهما كانت نتيجته أو الوسائل المبذولة لأجله، وذلك بالتعاون مع ثلة من أصدقائه الذين كانوا يؤمنون بتلك المبادئ التحريرية مثله، فوسّع من نشاطه وطلب الدعم أيضا من أصدقاء له بالجنوب التونسي الأمر الذي قاد إلى تفطن السلطة الفرنسية لتحركاته النضالية؛ فأصبح محط أنظار المستعمر، وبالتالي ضرورة وضع حد لنشاطه، فكان أن أودع السجن

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

وعمره 16 سنة بتهمة التآمر على السلطة الفرنسية قضى أربع سنوات في السجن وخرج منه في نوفمبر 1918 مع نهاية الحرب العالمية الأولى، يقول أحمد توفيق المدني: "غادرت سجني وأنا أضطرم نارا، وقد عقدت العزم على ولوج باب الجهاد من جديد إنما على أسس أخرى ومع رجال آخرين...، مع بقاء الهدف الأساسي ثابتا ألا وهو تحرير الأوطان وبعث الأمجاد، واحتلال مكان لائق بين شعوب الأرض ودولها"[21].

كان دخول أحمد توفيق المدني للسجن سببا في شهرته وإشعاعه بين التونسيين، يقول: "مهد لي سجني مقاما محمودا بين قومي ومركزا ممتازا في العالم الاسلامي؛ فتضحيتي لم تذهب سدى ومدة السجن لم تكن خسارة في حياتي إطلاقا..."[22]، وافق تلك الفترة تحرير الصحافة التونسية وذلك بتاريخ غرّة فيفري 1920، حيث عادت الصحف إلى الصدور بعد حجبها، عندها كثف المدني من نشاطاته بنشر مقالات متتالية اختار لها رمز "المنصور" كإمضاء حتى لا يكتشف اسمه، وكذلك اتقاء لشر السلطة الفرنسية، فكان يتولى النضال بقلمه حول قضايا الوطن العربي والإسلامي مثل القضية المصرية والسورية وخاصة التركية.

توالت مقالات المدني ضد النظام الاستعماري الفرنسي؛ فكان يفضح وسائلها وأهدافها المبتذلة، وبخاصة عند تعريبه لفصل من كتاب "تونس الشهيدة" لعبد العزيز الثعالبي الأمر الذي قاد إلى تهافت التونسيين على جريدة "المشير"، واختطافها من الباعة إلى حدّ نفاذ أعدادها، والنتيجة إغلاق مقر الجريدة وحجزها، عندها لم تعد السلطة الفرنسية قادرة على قمع قلمه؛ فقررت إبعاده نهائيا عن التراب التونسي، وكان ذلك يوم السبت 5 جوان 1925 على الساعة الثالثة ظهرا، ويصف المدني يومها ما حدث له في مكتب القائد العسكري كمبانا فيقول: "...وأخذ يحاسبني بإطناب عن مآخذ قانونية تشمل أعمالي في الحزب وفي الشعب، وأعمالي في جامعة عموم عمال تونس...، وناولني ورقة ممضاة من المقيم العام الفرنسي فيها الأمر بإبعادي من تونس حالا...، وامتطيت سيارة الشرطة إلى أن اجتزت الحدود؛ فإذا بي أُسلّم كبضاعة إلى كوميسار البوليس بعنابة"[23].

2- في الجزائر: كان ثمن هذا النضال والحماس المتقد من أجل الوطن والحرية والعدالة نفي أحمد توفيق المدني من تونس إلى أرض أجداده بالجزائر، ظنا منهم أنه

بإبعاده عن أصدقاءه سيتم إحباطه عن أعماله النضالية وكفاحه المستميت تجاه الأقطار العربية والإسلامية، إلا أن ما حدث كان عكس توقعاتهم، فقد وجد نفسه بين أهله بعنابة فيقول: "فكانوا يحوطونني خلال يومين قضيتهما ببلدتهم الزاهرة بكل حفاوة واحترام، وقد بذلوا الجهد في مؤانستي وإشعاري بأنني في قومي وبين أهلي وعشيرتي، وكانت لا تكاد تفارقني طائفة منهم حتى تحوّط بي طائفة أخرى، وكنت أشعر من حديثهم ومن إشاراتهم ومن ملامحهم أن الجزائر في حاجة إلى جهود ملية وإلى جهاد وطني"[24].

وهكذا وبعد أيام لم تتجاوز الأسبوع في "قسنطينة" حتى ألتقي بثلة من النخبة الذين أتبادل معهم أطراف الحديث في عدة مواضيع ومشاريع مهمة، وكان من بينهم المصلح الكبير عبد الحميد بن باديس والشيخ مبارك الميلي ومالك بن باديس وغيرهم، ممّا جعل لذلك الأسبوع قيمة أشهر من العمل الصالح الجيد[25].

لم يدخّر أحمد توفيق المدني يوما إلا وقد استعاد نشاطه المعهود وكأنه لم يغادر التراب التونسي، كان بحق وسيطا نضاليا استعان بخبرته العملية بمسقط رأسه لصالح أرض الأجداد الجزائر؛ فعقد العزم على مواصلة كفاحه بنفس الهمّة والحماس المتقد مؤمنا بوحدة المغرب العربي مردّدا: "فهل من عمل سياسي ممكن في هذه الأرض الجزائرية التي طال جهادها، وشاعت وذاعت أمجادها، يربط بين القطرين ويوحد بين جهادين، ريثما نستطيع أن نتصل بالجزء الثالث، المغرب الأقصى ليضم قوته لقوتنا فنوحد جهودنا ونواصل كفاحنا، ومادام عدونا في الأقطار الثلاثة واحدا له هدف واحد، ويسعى بوسائل موحدة، ويروم إفناءنا وقهرنا جميعا، فكيف لا نسعى لتوحيد الجهود وتوحيد الكفاح وتوحيد الهدف"[26].

البداية كانت مع خطابه الأول في احتفال المجلس البلدي بالعاصمة من خلال حفل تكريم له بمناسبة العودة إلى الجزائر متذكّرا ذلك بقوله: "حيث التف حولي في حركة لا شعورية نحو الأربعين رجلا استفزتهم الحمية، وتفجرت في صدورهم براكين الإيمان، وأخذوا يثنون ويطرون"[27]، وقد أثنى المدني على ثلة من خيرة رجال الجزائر، ومن بينهم المولود بن الموهوب الذي شبهه بالملائكة "فلو كان الملائكة يمشون على الأرض، ويختلطون بالناس..." لكان المولود بن الموهوب واحدا منهم لا محالة[28] كما

أعجب أحمد توفيق المدني بعبد الحميد بن باديس الذي كان أيضا من خريجي جامع الزيتونة بقوله: "ذلك الرعيل الأول الذي بعث به عمر بن عبد العزيز لهذا المغرب العربي يعلم الناس دينهم، ويجدد ايمانهم، ويمتّن أخلاقهم، ويهديهم سبيل الرشاد"[29].

اشترك المدني عند تواجده بقسنطينة بالجزائر في عدة نقاشات مع النخبة المثقفة حول الوضعية الاستعمارية بالجزائر، ومدى جور القوانين الفرنسية عليها، كما تطرّق إلى الوضع الاجتماعي والثقافي، ومدى انقسام المجتمع بين فئة مثقفة ثقافة فرنسية وأخرى ذات ثقافة عربية، كما تبين لديه الخطر الحقيقي في انخراط بعض كبار البلد في الانتخابات التي نظمتها السلطة الاستعمارية من أجل مقاعد بالمجالس البلدية والعمالية، وهي انتخابات كانت تتم بصفة فردية لا تزيد المجتمع إلا انقساما، والمتفوق فيها هو من يتحصل إما على المال أو على تأييد المستعمر.

من خلال هذه الأوضاع المتردية توسع نشاط أحمد توفيق المدني، وانطلق لمشوار آخر حافل بالإنجازات حيث وجد المناخ مهيئا سياسيا وفكريا لاستقبال قلمه وحماسه السياسي؛ فعثر على ضالته المنشودة مع النخبة الجزائرية، وقام بإنشاء صحيفة أسبوعية بالتعاون مع الشيخ عبد الحميد بن باديس سماها "الشهاب"، والتي كانت تعبر على لسان حال المسلمين الجزائرين.

كما ساند إصلاحات الأمير خالد التي انطلقت سنة 1919، ومارس نشاطه الفكري داخل الجزائر رغم القوانين التي فرضتها عليه السلطات الفرنسية، وبالتالي أثارت تحركات أحمد توفيق المدني الشكوك والتركيز والاهتمام من حوله الأمر الذي قاد إلى مساومة معه في تونس، وذلك بتقديم مقترح العودة إلى مسقط رأسه مع التخلي عن أهدافه وحزبه، والرجوع إلى عائلته، ولكنه رفض المقترح بقوله: "إذا ما رجعت إلى تونس، رجعت عاملا في صفوف حزبي مستأنفا كفاحي، وإذا ما بقيت بالجزائر كنت عاملا بها مؤمنا بمستقبلها مدافعا عن حقها، هكذا خلقت وهكذا أموت بعد تحقيق المنى ورفع راية الاستقلال[30].

هكذا كان أحمد توفيق المدني وسيطا نضاليا مكافحا بين تونس والجزائر، بل تواصلت وساطته مع الأقطار العربية والإسلامية، إضافة إلى انضمامه إلى صفوف الحركة الوطنية الجزائرية واتصاله الدائم مع فرحات عباس إضافة إلى نشره لعدّة

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مقالات توعوية تحريضية ضد المستعمر في جريدة البصائر التي تغير مسارها من جريدة تنشر أحداث الثورة حسب ما ينص عليه البيان الحكومي قبل سنة 1955 إلى جريدة سياسية ثورية جارحة للمستعمر بعد سنة 1955 من تاريخ غلقها بعد سنة واحدة.

توسع نشاط المدني النضالي فكلّف بالالتحاق بالوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة، والتنسيق مع جامعة الدول العربية وخدمة الثورة على الصعيد السياسي العربي، وجلب التأييد لها؛ فانتقل من وسيط مغاربي إلى وسيط دولي بين الأقطار العربية والإسلامية للتعريف بالقضية الوطنية ولإيجاد الحلول لها.

مواقفه وآراؤه الإصلاحية:

1- محاربة الطرق الصوفية: تعتبر المواقف النضالية لأحمد توفيق المدني جزءا لا يتجزأ من مشروعه النضالي؛ فقد خلق ليكون ثائرا على كل ما هو مخالف للعقل والمنطق والشريعة الإسلامية، إذ تميز الواقع الديني والاجتماعي آنذاك بتعدد الطرق الصوفية، وانتشارها بين الناس إضافة إلى تعلقهم ببعض مشايخ الطرق، وهو وضع عمدت إليه فرنسا لحماية نفسها من المواطنين، وإلهائهم عن المسائل العالقة بالدولة وبالقضية الرئيسية في تحرير الوطن.

هذا المناخ الذي وضعته فرنسا لحمايتها من الداخل تفطن اليه مجموعة من الزعماء الذين رفضوا هذا الواقع، وخصوصا الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي تحاور معه المدني تكرارا عن المجتمع والآفات الطرقية[31] ليتجلى الوضع أكثر لدى أحمد توفيق المدني عند حضوره لنموذج احتفالي للطريقة الرحمانية في حفلة سنوية يقوم بها رجال الطريقة الرحمانية القادمون من مدينة قسنطينة لأجل زيارة شيخهم صاحب الطريقة؛ فندّد بهذا العمل ضمن مقال صحفي سمّاه "حفلة طرب فوق أجداث الأموات"[32].

كانت النخبة المثقفة وعلى رأسهم أحمد توفيق المدني رافضة للأفكار والممارسات السائدة في الأوساط الطرقية؛ فقد كان الشعب بعيد عن الحزب وعن الواقع السياسي منشغلين فقط بكلمات سيدي الشيخ والتبرك بكرامات سيدي الشيخ[33] على حد قوله، وقد اتفقت النخبة المثقفة على محاربة هذه الظاهرة، وهو

ما أكدّه المدني: "فلا يصلح أمر الجزائر إلا بمحاربة الطرقية المظلة، وتكوين المدارس العربية لكي تسد الطريق في وجه الاتجاه الإلحادي الفرنسي"(34).

2- رفض قانون التجنيس: لم تكن مشايخ الطرق الصوفية الوحيدين الذين استهدفهم أحمد توفيق المدني بل نقد أيضا لا مبالاة مشايخ الدين ومواقفهم السلبية تجاه سياسة المستعمر، وخاصة في قضية التجنيس عبر إصدار قانون 20 ديسمبر 1923 القاضي بمنح الجنسية الفرنسية للتونسيين[35] الذين رغبوا فيها، والذين تتوفر فيهم الشروط المطلوبة، وقد صرّح المدني في هذا الشأن: "نقول لكم صراحة أن التجنيس حرام وكفر، إنّه ردّة لا ريب في ذلك، إنما لا نستطيع إطلاقا وبأي صفة من الصفات إعلان ذلك لا قولا ولا كتابة، وبما أن الأمر لم يعد يتعلق بالسياسة وإنما يتعدى على الدين؛ فقد أعلناها حربا لا هوادة فيها، وأصبحنا نحمل راية الدين باليمين وراية السياسة بالشمال"(36).

3- الدعوة إلى تعميم التعليم: بحث أحمد توفيق المدني عن أسباب تخلّف العرب والمسلمين؛ فوجد أنها عوامل تعود كما أشرنا سابقا إلى اهتمام الناس بالطرق الصوفية، وهو ما تطرّق إليه في مقال له بجريدة "الفاروق الأسبوعية" إذ أكّد أولها أننا تركنا شعائرنا الدينية المطهرة ونواميسها المحمدية الغراء، وثانيها أننا خالفنا عاداتنا القومية، وثالثها أننا ضيعنا لغة آبائنا وأجدادنا، لغة ديننا الإسلامي(37).

وقد بحث المدني عن حلول كفيلة لمعالجة الوضع من ذلك تعميم التعليم والتركيز على اللغة العربية مع الإتقان في مجال الصناعة بقوله: "ضرورة تعليم اللغة العربية ونشرها في جميع أنحاء القطر، وذلك بإنشاء مدارس خصوصية أو على الأقل كثرة مزاولتها بالمدارس الأهلية، وثالثها إحياء العلوم ونشرها بين كافة طبقات الشعب، ورابعها ترك الكسل والإقبال على تعلم الصناعات مهما كانت؛ فالصناعة أصبحت قوام حياة العالم(38).

وبما أن أفكاره كانت خارجة عما هو مألوف وسائد في عصره؛ فقد كانت إصلاحاته ثورية، من ذلك دعوته إلى ضرورة تعليم المرأة التونسية وتعميمه، حيث لاحظ أهمية تعليم المرأة لما تلعبه من دور أساسي تجاه الأسرة والمجتمع؛ فبتعليمها وتثقيفها تنشئ مجتمعا راقيا عكس ما هو موجود بقوله: "المرأة التونسية كغيرها من

نساء العالم إذا ما وجدت علما صحيحا وتربية إسلامية بحتة يكون لها دور مهم في الحياة الاجتماعية، لكن قضى الله على هذا القطر...بأن يكون نساؤه مسابقات للرجال في ميادين الجهل والفساد"[39].

ولمزيد التصدي للإستراتيجية الاستعمارية الممنهجة الداعية إلى تشكيك الشعب الجزائري في أصله وتاريخه بدعوى أن حضارتهم البربرية تعود إلى الأصل الأوروبي، بدليل تاريخ شمال إفريقيا كان على صلة بالمدينة الرومانية، وبالتالي فإن فرنسا سعت إلى مواصلة ما بدأته بتخطيط استراتيجي عبر توزيع هذه الأفكار من خلال الكتب المدرسية، وهو ما اعتبره المدني أكبر خطر على البلاد؛ فما كان منه إلا أن فنّد هذه الادعاءات الراهنة بتأليف كتاب عنوانه "قرطاجنة في أربعة عصور، تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام"، وذلك بقوله: "أخرجت للناس كتابي الذي كان فاصلا بين الحق والباطل، والذي كان ضربة حاسمة قصمت ظهر المظللين الكاذبين، وأخمدت أصواتهم إلى الأبد"[40].

لم يتوقف قلم أحمد توفيق المدني عند هذا، وألف كتبا أخرى منها كتاب شامل عن الجزائر جمع فيه كل الشهادات والحقائق عن الثورة إلى غاية الاستقلال، وأيضا مجلة المؤرخ إضافة إلى مذكّراته "حياة كفاح" الذي تناولنا بالشرح مقتطفات منه فيما يتعلق بدوره كوسيط نضالي بين القطرين المغاربين الشقيقين.

لم يكن المدني بعيدا عن أخبار تونس وعن كفاحها، فقد كانت تصله رسائل بمعدل سبعمائة وخمسين رسالة شهريا من جميع الجهات، وكان يجيب على الكثير منها مما يحتاج إلى إجابة، كما كان على اتصال يكاد يكون يوميا مع اللجنة التنفيذية بواسطة أعضائها، ومن بينهم محي الدين القليبي، وقد عبر عن شعوره ذاك بقوله: "كنت بعيدا عنهم شبحا فقط، أما الروح فقد كانت تزداد اتصالا يوما بعد يوم، وزادها قوة ومتانة حنين الشوق ومرارة الفراق، كنت أعمل في تونس بروح جزائرية، فإذا بي أعمل في الجزائر بروح تونسية، واكتشفت أن العمل واحد وأن الكفاح واحد، إن جهادنا المشترك إنما هو وعاء متصل الأجزاء ما صببت في جزء من أجزائه شيئا إلا توزع بصفة متعادلة على سائر الأجزاء"[41].

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الخاتمة: كان أحمد توفيق المدني كثير الانشغال بجميع القضايا والمسائل المتعلقة بالقطر التونسي الشقيق؛ فقد كان يشعر أنه دائما معنيا بما يجري في تونس من أحداث سياسية وعلمية وفكرية تماما كما كان يعتني بما يحدث مع أختها الجزائر، وهو نفس المنوال الذي سار عليه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الداعية المصلح الجزائري الذي عبر عن ذلك بقوله: "وتونس قبلة الجزائر العلمية، ومأرزها الذي تأرز إليه في النوائب، ومنارتها التي تشرف منها على الشرق وأنواره؛ فلا عجب إذا حرصت جمعية العلماء على تمتين الحبال الواصلة بين الجزائر وتونس، وعلى توضيح ما يخفي من أحوال الجار على جاره"[(42)].

إن اهتمامنا بالتجارب النهضوية العربية الإسلامية، وبخاصة لدى المغرب العربي بمختلف أطيافه لدليل على إثبات نضالاتهم وتضحياتهم في سبيل أصالتهم وهويتهم أمام مختلف أشكال القهر والإقصاء الاستعماري، وذلك في إطار توحيد جهودهم المبذولة بين الدول كوسطاء نضاليين توجب علينا اليوم الاقتداء بهم، والسير على دربهم لمحاربة أنواع الخلافات الموجودة على الصعيد الدولي والعالمي.

الهوامش:

**الوساطة هنا بمعنى (médiation) في اللغة الفرنسية، حيث يعدّ مصطلح الوساطة مصطلحا رائجا في المرحلة الأولى بالدول الأنجلوسكسونية وبالتحديد بانجلترا حيث ظهر في البداية اثر الدراسات التي انتشرت منذ التسعينات وذلك على يد جملة من المفكرّين الذين روّجوا لهذا المفهوم واعتبروا الوساطة الثقافية هي محاولة لمد جسور بين مختلف الميادين لأجل تقريب وجهات النظر ولإشاعة ثقافة الحوار والسلم الاجتماعي ---1- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، 4 أجزاء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، الجزائر1988، ج 1 ص .22

2 نفس المصدر، ج 1 ص 23--3نفس المصدر، ج 1 ص 5 --4نفس المصدر، ج 1 ص 6--5 نفس المصدر، ج 1 ص 20

6أنفس المصدر، حياة كفاح، ج 1، ص20.--7 نفس المصدر، ج 1، ص8--8نفس المصدر، ج 1، ص 28---9 مجلة العروة الوثقي، مجلة تهدف إلى توحيد جهود المسلمين وكان قد أنشأها كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بباريس سنة 1884.---10أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 1، ص61--11أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 1، ص62.--12نفس المصدر، ج 1، ص7.---13 عبد العزيز الثعالبي ولد يوم 5 سبتمبر 1876 وتوفي يوم 1 أكتوبر 1944، هو زعيم تونسي سياسي نضالي وكان قطبا بارزا، عمل على التخلص من الاستعمار الفرنسي والدفاع عن وطنه من خلال توجهه الاصلاحي، فكان يدعو إلى الرقي بمجتمعه وتطويره عبر التخلص من الاحتلال الفرنسي .--14أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 1، ص49--15نفس المصدر، ج 1، ص166.--16جامعة عموم العملة التونسية هي أول منظمة نقابية تونسية، نشأت سنة 1924 وعرفت بانتشارها السريع في أرجاء البلاد، وقد ساندها الحزب الحر الدستوري التونسي وذلك بهدف إضعاف نقابة الكنفدرالية العامة للشغل الفرنسية، من أبرز مؤسسيها محمد علي الحامي والطاهر الحداد، الا أنها لم تدم طويلا وأحيلت إلى التتبعات العدلية وإلى المحاكمة والنفي من قبل قادتها، فتم القضاء عليها في مطلع سنة 1925 أي بعد بضعة أشهر من ظهورها .--17أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 1، ص166--18نفس المصدر، ج 1، ص244--19نفس المصدر، ج 1، ص69--20نفس المصدر، ج 1، ص95.--21أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 1، ص150--22نفس المصدر، ج 1، ص146.--23نفس المصدر، ج 1، ص335-337--24أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 1، ص338.--25نفس المصدر، ج 2، ص7--26نفس المصدر، ج 2، ص14--27نفس المصدر، ج 2، ص43--28نفس المصدر، ج 2، ص19--29أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج، ص11--30نفس المصدر، ج 2، ص86--31أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 2، ص21--32نفس المصدر، ج 2، ص69--33نفس المصدر، ج 1، ص174--34أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 2، ص21--35نفس المصدر، ج 2، ص281--36نفس المصدر، ج 2، ص280--37نفس المصدر، ج 1، ص61--38نفس المصدر، ج 1، ص80-81--39 أحمد توفيق، حياة كفاح ج 1، ص77--40نفس المصدر، ج 2، ص19--41أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ج 2، ص7--42 أحمد طالب الابراهيمي، آثار الابراهيمي، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1997، ج 2، ص 271.